قال لى الشاه :

■ كانت غلطتى أننى أسرفت فى الديموقراطية

■ وقفزت عشر سنوات إلى الأمام ..

■ إن إيران تزحف إلى الشيوعية ..

■ خوفًا على إبنى لم أرق مزيدًا من الدماء فى إيران

أنيس منصور

تصوير : سعد نياس

جلست أنتظر ملك الملوك شاهنشاه أريا مهرى محمد رضا بهلوى . فلا أعرف كيف يبدو الآن . .

ولكن أعرف جيدا كيف بدا يوم رأيته لأول مرة فى مهرجان قورش العظيم فى طهران وفى بريسبوليس . . لقد صنعت فرنسا أجمل الملابس والخيام المكيفة الهواء . . وأتت الطائرات بالطعام ساخنا من مطعم مكسيم بباريس . . وفرنسا هى التى صممت أزياء الجنود . . وانجلترا هى التى أضاءت الشوارع . . والشاهنشاه هو الذى أتى بالملوك والرؤساء من كل الدنيا ليحتفلوا معه بذكرى الملك قورش مؤسس الدولة الفارسية ، والرجل المتسامح الذى حرر اليهود وأعادهم إلى القدس . . وكان الشاهنشاه – بالفعل – ملك الملوك : أناقة وفخامة وأبهة وعظمة . . وكان الشاه ذهبى الألوان ، ماسى اللمعان ، سليم الأعضاء والعينين ، مشدود الشفتين والساقين . ملكا على كل الملوك . .

ورأيته مرة أخرى خارجا من بلاده هابطا فى أسوان . . هل هى الصدفة أن يتوافق هبوطه بطائرته المسماة « الصقر » مع غروب الشمس . . ولكن الشمس تغرب وتشرق كل يوم . . فهل هو أيضا قد غرب ليشرق بعد ذلك ؟ إن قوانين الشمس مختلفة كثيرا عن قوانين الملوك ، فالذين غربوا مرة ماتوا إلى الأبد ، ولكن غروب الشمس جاء ليساهم فى تعمية نفسية ضرورية . . فقد أعطى لبشرة الشاه لونا آخر غير الأصفر المميت . طبيعى أن يكون لون الشاهنشاه وزوجته الشاهبانو أصفر فرعونيا . ورأيت عينى الشاه مثل دمعتين جامدتين . . بينما كانت فى عيون بعض الحاضرين دموع ساخنة . .

إذا كانت الشمس قد أخرت غروبها بعض الوقت . فهذه هى المرة الثانية فى التاريخ . فقد أخرت الشمس غروبها قبل ذلك عندما كان هوشع اليهودى يحارب أعداءه . انتظرته الشمس حتى انتصر فى معاركه . ولعل الشمس قد تأخرت بعض الوقت لتنصر الشاه على الأسى والحزن والأسف فى مواجهة العالم الخارجى . فى آخر معاركه فى مواجهة الناس . .

وعندما أركبه الرئيس السادات سيارة مكشوفة فى أسوان ، كان يقصد أن يخفف عنه ، وأن يهون عليه . . وأن ينعش أذنيه بهتافات الجماهير الطيبة التى تكن له عظيم الامتنان . فقد وقف مع مصر فى محنها . . وليست هذه الهتافات والتصفيق لموكبه إلا تعبيرا عن ذلك . . ومن المؤكد أن الذى فعله المصريون ليس إلا شمعة متواضعة ، ولكنها صادقة ، فى ليل شديد الظلم والظلام . .

ومرة ثالثة يوم جاء مريضا من بناما . . هاربا بجلده وعظمه . خائفا ألا يموت فى هدوء . فقد كان الشاه يبحث عن مكان يموت فيه . ضاقت به الأرض . وضاقت عنه . وصدق عليه قوله تعالى « ما أغنى عنه ماله وما كسب » . وكان يهرب من الناس . . لعله يتمكن من الهرب من دمه . . فالموت فى كرياته الحمراء . . فى أعمق أعماقه . لقد جاء إلى القاهرة ميتا إلا قليلا . . أما القليل الذى بقى له فهو : ذكاء من نار ، وإرادة من حديد ، وذاكرة من كوارتس . .

ثم هذه المرة التى رأيته فيها وحده ووحدى . . هذه المرة كنت أواجه الناقدة : الشمس فى عينى . فلم أستطع أن أراه بوضوح . ولا أستطيع أن أقول له : انتقل فى الظل حتى أراك . . فالظل الذى يرفل فيه كثير كثيف . . بل إنه لم يعد يريد الشمس التى تغرب وتشرق . . بينما هو الذى غرب ولا أمل له فى أن يشرق مرة أخرى . .

ووجدته أكثر شحوبا ونحولا . . وعندما تخللت أشعة الشمس شعر رأسه . . وجدت الشعر خفيفا . . لا هو أبيض ولا هو أصفر . . إنما هو خليط من الضوء الخافت والظلال العميقة . . لقد بدأ الظلام يحتويه من رأسه إلى قدميه . .

ولكى تذكرت حكمة أستاذنا العظيم سقراط عندما وجد أن من بين تلامذته واحدا لا يتكلم فقال له : تكلم حتى أراك . .

وسوف يتكلم الأمبراطور حتى أراه . وسوف أبتعد تماما عن الكلام فى السياسة . أى أننى سوف أحاصره بتساؤلات عن الأدب والفلسفة والتاريخ . . وبذلك أتلصص عليه . . فليس من الإنسانية ولا من الحكمة أن أتحدث إليه عن الذى حدث فى إيران . . ماذا جرى عليه . . ثم إن الامبراطور قد روى ما حدث فى مذكراته التى صدرت بعنوان « رد على التاريخ » . ونشرته مجلة « أكتوبر » مسلسلا . .

وقد عرفت أنه يقرأ الفلسفة والأدب ويحفظ الشعر . . ولكنه مثل كل الملوك يخفى أصدق مشاعره . . لأن الاعتراف بها ضعف . ولذلك فهو يعيش تحت قناع من حديد . والقناع من صنعه هو . إن كل الملوك مثل فرسان العصور الوسطى يتغطون بأقنعة جافة خانقة : ولكنها الوسيلة الوحيدة لحمايتهم من الناس . .

ومهما كانت الدرع قاسية ثقيلة باردة جافة ، فهى أفضل لديهم من السير على طبيعتهم عراة حفاة – هدفا لسهم من خشب يسدده طفل فيرديه قتيلا !

وأذكر أننى عندما كنت فى طهران فى « قاعة العرش الشاهنشاهى » تلفت حولى يمينا وشمالا ، وفوق وتحت قدمى ، فلما لم أجد أحدا تسللت إلى « عرش الطاووس » وجلست عليه . . واحتفظت بهذه الصورة التى لا معنى لها . . لقد أردت فقط أن أسرق لحظة من المملكة الأبدية . . ووجدت أن كرسى العرش جاف خشن . . إنه من الذهب والأحجار الكريمة . . ولكن الأحجار الكريمة مثل الأحجار اللئيمة ، باردة . . تماما كما يجلس الإنسان على الرصيف .

طبعا ليس هذا رأى الذين يجلسون على العرش ويموتون دونه ، وليس رأى الواقفين الراكعين الساجدين أمامه ، صادقين ومنافقين . . إنما هو رأى الثعلب الذى تطاول إلى شجرة العنب ، فلما لم ينل شيئا قال : إن العنب مر . .

فالذى أحسسته من برودة الأحجار الكريمة ، ليس إلا مرارة العنب ! . .

وأفقت من ذهولى الذى لا أعرف كم كان طوله . ووجدت يدا ممدودة فمددت يدى . وجلس جلالة الشاه فجلست . وأفقت . وكان مستعدا . وتراجع إلى الوراء فى مقعده كعادته . ومد ساقيه إلى الأمام كعادته . وتطلع بعينين سادرتين سارحتين وراء منظاره إلى ما ورائى . . إلى ما وراء الوراء . . وتقدمت أنا إلى ما يقربنى منه بأسئلتى . . لا أريد أن أتجاوز جلده إلى لحمه . . فقلت : جلالة الامبراطور أنت تبدو فى صحة جيدة .

فزم شفتيه وهز رأسه فقد سمع هذه البداية التقليدية كثيرا . أو لعله نسى هذا النفاق الاجتماعى منذ سنة ونصف وتركه هو وكل شىء آخر وراءه فى بلاده . وقال : أنت تعرف أنها كانت عملية جراحية كبيرة وخطيرة . . ولكن الآن أنا أحسن بكثير . . وزنى الآن ٦٣ كيلو جراما ، والطبيب يرى أن من الضرورى أن يكون وزنى سبعين كيلو جراما . وإن كان من الأفضل أن يصبح وزنى اثنين وسبعين . .

قلت : علمت أن جلالتك تتريض يوميا . .

قال : أمشى ساعة كل يوم . وفى الصيف أرجو أن أمارس رياضة السباحة . فهى أحسن علاج . .

قلت : هل هى العلاج الوحيد ؟ . .

أجاب : لا . . بل أنا فى حاجة إلى علاج مستمر . . والآن أجرب العلاج الكيميائى . . فالأطباء يحقنونى بمجموعة من المواد الكيماوية فى الوريد . . إنها حقنة كبيرة تستغرق نصف ساعة . . شاقة مرهقة . . والغرض من هذا العلاج الكيميائى هو التحكم فى خلايا الدم المعرضة لأن تصاب بالسرطان . .

ومن القلق المهذب الذى ظهر على وجهه وحركاته ، أيقنت أن مثل هذه التساؤلات عن صحته ، ليست هى التى ينتظرها . . وشجعنى هذا الضيق على أن اقترب منه أكثر . فقلت : جلالتك تتابع أخبار العالم شرقا وغربا . .

فاعتدل قليلا فى جلسته . . واتخذ وضع الاستعداد وقال : طبيعى . هذه عادة عمرها خمسون عاما . .

قلت : وتتابع الكتب التى صدرت عن الثورة عليك فى إيران . .

أجاب : بعض هذه الكتب قرأته . .

فسألته : كتاب فريدون هويدا مثلا ؟ . .

أجاب : إنه أخو رئيس الوزراء . . إنه واحد من المؤيدين لنا . . ولكن حاجته إلى المال كانت شديدة . .

ولقد رويت القصة كاملة فى مذكراتى التى عنوانها « رد على التاريخ » . وإن كنت سوف أضيف فصلا إلى الطبعة الإنجليزية . وسوف أبعث إليك بهذا الفصل لتنشره فى مجلة « أكتوبر » . .

ومذكراتى توقفت عند سبتمبر سنة ١٩٧٨ . ولذلك كان لابد أن أضيف اليها أشياء أخرى كثيرة . فقد تابعت الأحداث . وشاهدت التليفزيون . ورأيت مناقشات الأمم المتحدة . وتلقيت معلومات كثيرة . فرأيت وفهمت وحللت واستنتجت لماذا حدث كل ذلك فى بلادى . .

قلت : ألم يكن ذلك كله واضحا فى مذكرات جلالتك ؟ . .

قال : إنها تحتاج إلى توضيحات وإلى النظر من زوايا مختلفة . وإلى مناقشة بعض الاجتهادات والأكاذيب التى أدخلت الحوادث فى إطارات وهمية . . ولقد أشرت فى مذكراتى إلى أن الذى يحدث فى إيران الآن قد حدث سنة ١٩٠٧ ، عندما كان الانجليز والروس قد اقتسموا البلاد ، وبعد ذلك جاء الإنجليز والأمريكان وقدموا لستالين ومولوتوف هدية أخرى ، هى أن يكون لولايات أذربيجان وكردستان وخوزستان التركية والكردية ، حكم ذاتى . .

ووقفنا ضد رغبة ستالين . وضد رغبات عدد كبير من مستشارى . . ونجحنا ، وكانت هذه هى أول مرة نقف فيها ضد السوفيت . ومشينا فى ذلك وراء موقف تيتو سنة ١٩٤٨ . .

هذه هى السياسة القديمة : تمزيق إيران وإعطاء أجزاء منها الحكم الذاتى . فإذا حدث ذلك لولاية واحدة فإن الولايات الأخرى سوف تتبعها بسرعة ، وتنهى الدولة وتتمزق القومية الايرانية . .

أو لعلهم أرادوا أن تكون هناك منطقة عازلة بين الهند وروسيا . وهذه أيضا سياسة بريطانية قديمة . فتكون هذه « الأرض الحرام » هى إيران . .

وتلك السياسة لن تنفع هذه المرة . لأن الأوضاع القائمة فى إيران ، إذا بقيت على ما هى عليه من فوضى واختلال . . فلن يفلح الوطنيون المخلصون لنا فى القيام بعمل مضاد ، لأن إيران سوف تصبح دولة شيوعية بسرعة مذهلة . .

والذى نراه فى إيران الآن ليس نظاما . ففى إيران الآن بطالة تبلغ أربعة ملايين نسمة . وقد أكلت الحكومة – إن كانت هناك حكومة – كل الاحتياطى الذى تركناه وراءنا . . وهم الآن يحصلون على الأموال بأى شكل . . ويرغمون الناس على دفع الضرائب . . وفى ايران أناس كثيرون غير قادرين على دفع الضرائب . . ولذلك فالحكومة اقترضت من البنك المركزى عشرة آلاف مليون دولار . . وليس هناك إنتاج . . والتضخم بلغ ٣٠٠٪ منذ تركنا البلاد . هذا هو الوضع فى إيران . .

قلت : ما الذى يجعل جلالتك تعتقد أن إيران الشيعية سوف تتجه بهذه السرعة إلى الشيوعية ؟ . .

قال : لأن إيران لا تجد ما تأكله . . ولا يستطيع أحد أن يطعمها أو يسقيها . . فلا مفر من الشيوعية . . لأن إيران بعيدة عن الدين . وليس الدين هو هذه الجرائم اليومية التى ترتكب ، والدماء التى تراق ، والسجون التى يتكدس فيها الأبرياء . . ثم إنهم يقولون لشعبنا دائما : إنكم شعب من المتسولين الشحاذين التعساء . . بدلا من أن يقولوا لهم : بل فى استطاعتكم أن تكونوا شعبا من الدرجة الأولى . .

ومعنى ذلك أن الناس يجب أن ينتظروا طول الوقت لكى يلقوا إليهم بفتات الطعام حتى لا يموتوا جوعا . . وفى ذلك قتل للعامل وإهدار للموهبة . .

كما أن رجال الدين يبيعون كل شىء . وإن كانوا يخصون الذين يحاربون دفاعا عنهم ببعض المال والطعام والامتيازات . لكنهم فى إيران قد قتلوا الطبقة الأولى . وقد يحدث ذلك فى أى بلد ، وفى أية ثورة . . ولكنهم الآن قد انجهوا إلى الطبقة الثانية فقضوا عليها . وهم الآن قد استعدوا للقضاء على الطبقة الثالثة . .

ومعنى ذلك أن تصبح إيران شعبا من الطبقة الرابعة أو الخامسة . . من البؤساء واليائسين والمتضورين جوعا فوق أرض غنية . .

مثلا : إن المفاعلات النووية أغلقوها . . والجسور أسقطوها . . ومحطات توليد الكهرباء عطلوها . . وكنت أنتج يوميا خمسة ملايين برميل . . واليوم ينتجون مليونا واحدا . . فلا دخل ولا ضرائب . .

ولذلك أعتقد أن الشعب الإيرانى يزحف الآن على بطنه نحو النظام الشيوعى . . فسوف يجد فى الشيوعية نظاما وطعاما . وسوف يعمل الناس ويكون لهم أجر . وسوف تتقدم البلاد ماديا على الأقل . والناس يصبحون عبيدا . ولكنهم مثل نزلاء السجون ، سوف يجدون ما يأكلون . !

قلت : جلالة الامبراطور ، إنك لم توضح لنا فى مذكراتك إلى أى حد كان الأمريكان مسئولين عما حدث . .

فقال متفاديا الإجابة : سوف أوضح ذلك فى الفصل الذى سأبعث به إليك لتنشره فى مجلة « أكتوبر » العظيمة الاحترام . .

قلت : أشكر جلالتك على هذا التقدير . . ولكن يا صاحب الجلالة من الذى يساعد الخمينى أو من الذى ساعده وسانده ؟ . .

قال : يساعده كل من يستفيد من هذه الفوضى . .

قلت : إلى وقت قريب جدا كان الاعتقاد أو الاجتهاد السائد هو أن الغرب أراد مساعدة هذا النظام – وإن لم يكن نظاما . .

أجاب : عن طريق بازرجان الذى هو عميل قديم لبريطانيا وأمريكا . . أو عميل لبريطانيا أكثر . .

قلت : وحاولوا مساعدة الرئيس بنى صدر . .

فسأل : من ؟ . .

قلت : الغرب . .

قال : ولكن ليس الأمريكان ! فالغرب كان على استعداد لأن يعطى نوعا من الحكم الذاتى لكردستان . وكما قلت لك منذ قليل : إنك إذا أعطيت الحكم الذاتى لإحدى الولايات تبعتها الولايات الأخرى . .

وقد سمعت من الراديو أن لجنة دولية سوف تذهب إلى إيران لترى ماذا يمكن عمله بالنسبة للرهائن . . وسوف تكون هناك انتخابات هزلية . ولا أعتقد أن السيد بنى صدر سوف تكون له أغلبية . . إنما سوف تكون الأغلبية للأحزاب الدينية . وعلى ذلك فالمستقبل ليس واضحا . .

قلت له : إن الخمينى هو أساس هذا النظام يا صاحب الجلالة . .

قال بسرعة خاطفة غاضبة : الخمينى ؟ ! إنه شرير . . إنه رجل متخلف . . إنه يعيش فى عصر مضى وانقضى . .

قلت : هل قابلته جلالتك ؟ . .

قال : لم أره . لقد كان مجهولا تماما قبل ١٧ عاما . وكان مضحكا حقا عندما راح يهاجم الثورة البيضاء التى أعلناها . . ولذلك طردناه إلى الخارج وبدلا من أن نضعه فى السجن . تركناه يخرج حيا . .

قلت : هل كان من تدبير جلالتك أن يذهب إلى فرنسا بالذات ؟ . .

أجاب : لا . . ليس كذلك . لقد ذهب إلى تركيا والعراق . . وبقى فى العراق ١٤ عاما . ولم يتوقف نشاطه . وحكومتنا فى ذلك الوقت سألت العراق كيف تتركون مثل هذا الرجل يمارس العداء لإيران ويجاهر به . وأخرجه العراق . وحاول أن يذهب إلى الكويت ، فرفض الكويت دخوله . فسافر إلى سوريا ومن سوريا استقر فى ضاحية بالقرب من باريس . .

قلت : ولكن بعض المحللين السياسيين أكدوا أن ذهابه إلى باريس كان تلبية لرغبة جلالتك . .

أجاب : لا . . ليس صحيحا . إنما الفرنسيون سألونا ما الذى نفعله بهذا الرجل . ولم نجد ما نقوله لهم . . وسواء بقى فى باريس أو هيوورج فالمعنى واحد .

قلت : هناك اجتهادات بأن الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان هو الذى نقل إلى رؤساء الدول التى اجتمعت فى جزيرة جواديلوب تفاصيل ما جرى فى إيران ، ثم إنه هو الذى طلب إلى الرئيس كارتر أن يتصل بالخمينى . .

أجاب : سمعت هذا . ولكنى لا أعرف التفاصيل بالضبط . وإن كنت أستطيع أن أنكهن بعضها . .

قلت : من متابعة جلالتك للأخبار ومن معرفتك الكاملة لتاريخ العلاقات الإيرانية العراقية ، هل تتوقع حربا بين الدولتين ؟

أجاب : لا أتوقع حربا . . وإن كان من الممكن أن تقع مناوشات واشتباكات طويلة . . أما الحرب فلا . .

قلت : بعض العرب أفزعهم أن تترك بلادك . . ورغم ذلك لم تحاول هذه الدول العربية أن تتخذ موقفا واضحا معك أو ضدك ، أو مع الإمام الخميني أو ضده . .

أجاب : بعض العرب سعداء لأنني تركت البلاد . .

قلت : وبعضهم خائفون . لأن الإمام الخميني لم يعطهم الأمان الذي افتقدوه بوجودكم في إيران . .

قال في غضب عابر : لا أعرف لماذا يخاف العرب . لماذا كانوا خائفين . . إذا كان الإسلام هو الذي يعطي الأمان ، فالخميني لا يمثل الإسلام . . وإذا كان المذهب الشيعي هو الذي يخيف ، فليس من المذهب الشيعي : هذا القتل والسجن والتشريد والتجويع والتخريب . .

لعلهم كانوا خائفين داخليا . .

قلت : ربما كان سبب الخوف هو من الشيعة الموجودين في البلاد العربية . .

قال : ولكن ليس من المذهب الشيعي إهدار كرامة الإنسان وإراقة دماء الأبرياء . . فالمذهب الشيعي برىء من كل ذلك . . إنني أرقب الأحداث وأتابعها من مصر ، وأزداد حزنا على ما أصاب شعبي وبلادي . .

قلت : جلالة الشاه كيف قررت المجيء إلى مصر ؟ . .

قال : عندما جئت إلى أسوان دعاني الرئيس السادات والسيدة حرمه إلى البقاء في مصر ، وكان الرئيس السادات رقيقا ولطيفا وكريما . كان أكثر من أخ . لأنه من الممكن أن يكون لك أخ شرير . . والرئيس السادات أخ كريم موثوق به . لقد طلب إليّ بإلحاح شديد أن تبقى في مصر . وتذكرنا هذه الدعوة الصادقة دائما . وكنا على اتصال دائم بالرئيس السادات والسيدة الكريمة زوجته . بل إن الرئيس السادات قد ذهب إلى أبعد وأعمق من ذلك عندما جاءتني الدعوة رسميا عن طريق مجلس الشعب . ولن ننسى له هذا الكرم وهذه الشجاعة مادمت حيا ، بل إن التاريخ لن ينسى له ذلك . فقد اتخذ الرئيس السادات قرارات عظيمة كثيرة جدا .

وفي بناما وفي مواجهة ما حدث لنا هناك تذكرنا هذه الدعوة الأخوية للرئيس السادات والسيدة الكريمة زوجته . وتذكرنا الترحيب الصادق العميق الذي قابلنا به . ولم يكن الاختيار صعبا . وقررنا أن نجيء إلى مصر . ونجحنا في الوصول إليها . وهو أفضل قرار اتخذناه منذ تركنا بلادنا . .

قلت : ولكن جلالتك ذهبت قبل ذلك إلى المغرب . وكان من المنتظر أن تبقى هناك وقتا أطول ، أو تبقى هناك دائما ؟ . .

قال : لقد عشنا هناك بضعة شهور . . ولم نشأ أن نشق على جلالة الملك الحسن الثاني . ولذلك غادرنا بلاده إلى جزر بهاماس ثم إلى المكسيك . .

وأرسلت أولادي إلى الولايات المتحدة . فأكملوا الدراسة في سيتمبر الماضي . وكنت مريضا معظم الوقت . ثم كان ما أصاب طحالي . وذهبت إلى مستشفى بنيويورك وبعد ٤٨ ساعة قررنا إجراء العملية . وفي ذلك الوقت احتجزوا الرهائن الأمريكان بسفارتهم في طهران . لقد كان ذلك إهمالا شديدا من الحكومة . لقد أمسكوا بالرهائن . وصدق الأمريكان حكومة العميل بازرجان عندما أخبرهم بأنه سوف يعنى عناية تامة بالسفارة الأمريكية وبمن فيها . . ولم تكن في إيران حكومة . بل إن هذه « الحكومة » لم تستطع أن تحمي البيوت المجاورة لمكتب رئيس الوزراء . . ولذلك أخذوا الرهائن وحدث ما حدث . . وطبيعي أن يقع كل ذلك ما دامت لا حكومة ولا نظام هناك ! . .

إنهم في إيران يطلبون إلى الطبيب أن يكتفي بدراسة بضعة شهور ليكون بعد ذلك قادرا على علاج المرضى . .

فإلى جانب غياب القانون ، اختفاء العلم أيضا . . وهذا ما أعلنه الخميني . . إنه قال : ما حاجتنا إلى أطباء أجانب . . إننا قادرون على إنتاج أكبر عدد من الأطباء . . إنه رجل مجنون . . إنه رجل أمي ! . .

قلت : إنه عكس ما قررته جلالتك . . لقد قررت أن تقوم « بتغريب » إيران — أي جعلها دولة غربية متطورة . . وكانت نزعة التغريب أو التطوير أو التحديث سريعة وعنيفة . . ويقال إن هذه الفلسفة هي التي أدت إلى الثورة على جلالتك . . فقد أدت هذه الثورة إلى توسيع الهوة بين الطبقات في إيران ؟

قال متراجعا في مقعده ثم معتدلا بعد ذلك ، كأنه أعاد تركيب جسمه أو كأنه وضع رأسه على كتفيه بعناية شديدة ليرد على هذه القضية الفاصلة القاتلة أيضا : في السنوات الأخيرة ذهبت في « التغريب » والتطوير إلى أبعد مدى وبأسرع ما يمكن . . لقد كان تغييرا كبيرا كثيرا . . كان تغييرا سريعا وكنت بالغ الاهتمام بذلك . . وفي نفس الوقت دون إراقة الدماء . . فقد كان المهم عندي أن أحشد الناس وأن أدفعهم إلى الأمام بمنتهى السرعة والقوة . . وأن أرغمهم على الحضارة إرغاما . .

والآن عندما أنظر إلى الوراء فإنني أرى الأخطاء أكثر وضوحا . .

قلت : ما هي أخطاء جلالتك ؟ وما الذي أصلحه الخميني منها ؟ . .

قال : أخطائي . . لابد أن تكون هي حرصي على الإسراف في الديمقراطية . .

قلت : كيف ؟ . .

قال : مثلا : إطلاق سراح المعتقلين السياسيين والإرهابيين . . وإعطاء السلطات للحكومة الفاشلة في ذلك الوقت . . ثم أكبر غلطة هي : الانسحاب . . الانسحاب باستمرار . . ومزيد من الانسحاب أمام ضغط الشعب والهيئات والجماعات . . وكانت الاختيارات أمامي بعد ذلك صعبة جدا . . ولذلك قررت أن آخذ إجازة . . وكان ذلك هو المخرج من المأزق . فمن الناحية الدستورية كان كل شيء في

مكانه وموقعه وحجمه ووزنه . . هناك مجلس للبلاط . . وحكومة شرعية وافق عليها البرلمان . . والجيش الذي أقسم على الولاء لي . . ولكن عندما خرجت انهار الجيش .

. . . . . .

(أما هذه النقط فهي آهات طويلة متتابعة . وبعدها أحنى رأسه . . لأبتلع أنا أيضا ريقي وأنتظر) .

قلت : جلالتك آسف على ما حدث ؟ . .

أجاب : آسف نعاما على ما أصاب بلادي . . لقد أعددت ثورة لبلادي من ١٩ نقطة . . ليس من بين هذه النقاط واحدة في تاريخ أي بلد . .

لا توجد نقطة واحدة قد سبقني إليها أحد . .

كنت أتوقع أن تصبح إيران في سنة ١٩٨٣ دولة قوية . . وعندما تركنا بلادنا كان متوسط دخل الفرد ٢٥٢٠ دولارا . . وكان من الممكن أن يبلغ اليوم أربعة آلاف دولار . .

وفي سنة ٢٠٠٠ كانت إيران ستصبح مثل أية دولة أوروبية حديثة متطورة . . بل عسكريا أيضا . . ففي إيران جيش من أعظم الجيوش في العالم ومن أكثرها تطورا . .

قلت : جلالة الشاه ولماذا كل هذه القوة العسكرية وكل هذه الأسلحة المتطورة الفادحة التكاليف ؟ .

أجاب : وما الخطأ في أن يكون لدولة متماسكة عريقة جيش قوي . . فقد كان في الإمكان عن طريق هذا الجيش إنقاذ الشرق الأوسط . .

أنا ليست لي أطماع خارجية . .

وأستطيع أن أقول لو كنت الآن في إيران ، ما حدث شيء مما جرى في أفغانستان . .

قلت : وهل كان في استطاعة جلالتك أن توقف الزحف السوفيتي على أفغانستان ؟ . .

أجاب : كان على الروس أن يفكروا مرتين قبل أن يُقْدِموا على هذا الغزو . . وحتى إذا لم يفكروا ، فإن شيئا مما أصاب بالوشنطن ما كان من الممكن أن يحدث . . ولا أن تتقدم القوات السوفيتية إلى المحيط الهندي أو بحر العرب أو الخليج الفارسي . . هذا هو الجواب على ضرورة أن تكون عندنا قوة عسكرية وجيش متطور . .

قلت : من ترى جلالتك الضحية القادمة للسوفيت ؟ . .

أجاب : كما قلت لك من قبل : إذا لم يفعل الوطنيون شيئا فى داخل إيران ، فسوف يكون الدور على إيران نفسها . وسوف يجىء ذلك من الداخل . . أى سوف تكون دعوة روسيا إلى احتلال ايران من داخل الفئات الإيرانية . .

وتساءلت : ولن يفعل الأمريكان ودول الغرب شيئا ؟ . .

أجاب : الغرب ؟ وهل فعل الغرب شيئا أمام تدخل السوفيت فى تشيكوسلوفاكيا وفى المجر . .

ان القاعدة السوفيتية فى التدخل عادة هى : أنهم يدخلون أولا ويتلقون الدعوة بعد ذلك ! . .

فلا مفر من الشيوعية فى إيران . لأنه إما أن يقوم الوطنيون بثورة وإما أن تلقى الدولة بنفسها عند أقدام الشيوعيين أو فى أحضانهم . . وإن كان لا يهم مطلقا أن تلقى إيران نفسها عند القدمين أو بين الذراعين . . إن الذى يهم هو أن إيران ستضطر إلى الإلقاء بنفسها إلى الهاوية الشيوعية . .

أما الدول الغربية فهى مشغولة بمصالحها فقط . . مشغولة بالإجازة الصيفية أين . . والإجازة الشتوية أين . . ومشاكل الإسكان . . والاستهلاك . . وتخفيض التسليح . . وبيع السلاح لدول أخرى . . ثم الوفاق بين أمريكا وروسيا ؟ . .

وفى استطاعتك أن تضع هذه المعانى على النحو الذى تريد . . هذا هو العالم الغربى . .

إنهم يسلمون بالأمر الواقع وينتظرون ما سوف يحدث بعد ذلك . .

تساءلت : ولكن . . جلالة الشاه لم يتضح من هذا الحديث أو من مذكراتك ما هو الدور الغربى أو رد الفعل الغربى على ما حدث فى إيران . .

أجاب : الرد الصحيح هو الخوف . .

تساءلت : من ماذا ؟ . .

قال : الله أعلم من ماذا ! ربما الخوف ظاهرة عربية مرضية . . ربما الخوف بسبب الأوضاع المشتعلة فى داخل البلاد العربية . .

قلت : بعض إمارات الخليج كانت شديدة الخوف منك ، وبعضها الآن شديد الخوف من الخمينى . . فهم خائفون من إيران دائما ! . .

قال : لم يكونوا على حق فى خوفهم . فقد كنت أحسن أصدقائهم . وإذا كنت تقصد أنهم ازدادوا خوفا بعد استرداد إيران للجزر الثلاث فى الخليج الفارسى ، فأنا لم أستول عليها . إنما أنا استعدتها من البريطانيين الذين سرقوها من إيران . .

قلت : جلالة الشاه تقول إن فى استطاعة الوطنيين القيام بشىء ضد الخمينى ، فإلى أى حد أنت على يقين من ذلك ؟ .

أجاب : ليست لدى معلومات كافية مع الأسف . فالموقف صعب جدا . معقد جدا وذلك لنقص وسائل الاتصال . فالوطنيون المناوئون للخمينى أغلبية ساحقة . ولكنهم ليسوا منظمين . كما أن الأسلحة الآن فى أيدى الغوغاء .

قلت : جلالة الشاه هل من الممكن أن نفسر ما حدث فى إيران تفسيرا نفسيا . بمعنى أن نعتمد على التفسير النفسى الشخصى للتاريخ . . فنقول إن الإمام الخمينى قد دفعه إلى الثورة عليك ، أن أباك قتل أباه وأنك قتلت ابنه . . هل هذا سبب كاف لكل ما حدث ؟ ألا يحدث أن تقوم ثورة أو حرب من أجل وفاة شخص واحد . . كما حدث فى حرب سنة ١٩١٤ عندما اغتيل أمير نمساوى أو كما حدث فى حرب طروادة من أجل الفتاة هيلين ؟

ولم يسترح الشاه لهذا السؤال أو لهذا التبسيط الشديد لوقائع التاريخ أو الثورات فى العالم . . مع أن التاريخ قطار تدفعه إلى الأمام قاطرات ضخمة ، هذه

القاطرات هى الأفراد الممتازون . . أو أصحاب الغضب النبيل . . أو الثأر الجميل . .

فكان جوابه : لم يحدث لأبيه أى شىء . . لقد مات أبوه موتا عاديا ، ثم إن أباه هذا ليس إيرانيا . كما انى لم أقتل ابنه أيضا . إنما الخمينى رجل شرير بطبعه ، ولم يكن فى حاجة إلى وفاة أبيه أو ابنه ليسفك الدماء ، أو ليهدم قبر والدى ليدفن حماته .

قلت : ولكن بماذا تفسر جلالتك جاذبية الرجل والتفاف الملايين حوله ؟ .

أجاب : الدم . إنه الدم !

قلت : هل تريد جلالتك أن تقول إن كل هذه الملايين متعطشون للدم ؟ . .

أجاب : نعم . ماداموا قد التفوا حوله ومشوا وراءه وارتضوا الهوان والعذاب على يديه . ووقفوا يتفرجون على خراب البلاد ، دون أن يثوروا . . فلابد أن هذا يرضيهم . . فهو بذلك قد حقق لدى الجماهير رغبة دموية شريرة . .

إن الرجل قد أصيب بجنون . . إنه ينكر كل تاريخ إيران الذى عمره ٢٥٠٠ سنة . . ويرى أن التاريخ قد بدأ به هو . . وأن كل ما حدث قبله لا وزن له ، ويجب ألا يكون له وجود . ألا ترى أن هذا — رغم المأساة — شىء مضحك ؟ ! . .

قلت : جلالة الشاه لاحظت أنك تقول « الخليج الفارسى » ونحن نقول « الخليج العربى » أو الخليج فقط . .

قال : إن هذه حقيقة تاريخية . . ففى كل خرائط العالم نجد الخليج الفارسى ، حتى الرئيس جمال عبد الناصر كان يقول عنه الخليج الفارسى . إما الخليج العربى فاختراع عربى . . ولقد قرأت « الخليج العربى » لأول مرة مكتوبا فى صحيفة التايمس البريطانية فى الخمسينات . . ربما فى ١٩٥٦ أو فى ١٩٥٧ . . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل العرب يتمسكون بهذه التسمية . . وأنت تعرف أن بعض البلاد العربية تعيش على الشعارات . .

وقد اتخذوا من هذه التسمية شعارا . فما فائدة تغيير الأسماء التاريخية أو الجغرافية . . فعندك الشيخ الهندى لماذا سمى

كذلك . . ولماذا لم يكن اسمه المحيط الأفريقى . . كما أن فى استطاعتكم أن تسموا البحر الأحمر بالبحر العربى . .

ثم لماذا لا يسمونه بالخليج الإسلامى . . فنحن مسلمون ولسنا جميعا عربا . . والأغلبية الإسلامية ليست عربية .

قلت : جلالة الشاه هل ترى لما حدث فى إيران أى صدى فى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى ؟ . .

أجاب : نعم . . سوف يقول السوفيت للمسلمين عندهم : هل تريدون أن تصبحوا مثل إيران ؟ هل هذا هو الإسلام ؟ هل تريدون الفوضى وسفك الدماء والجوع والدمار والبطالة والتمزق . .

قلت : إذن فهل كان من أهدافك يا جلالة الشاه أن تقفز بإيران بعيدا عن الجمهوريات الإسلامية السوفيتية ، فتقطع الصلة بينها وبين إيران ، وذلك بتطوير إيران ودفعها إلى الغرب بدلا من التصاقها بالشرق ؟ . .

أجاب : نعم . ولكن ليس هذا فقط . فعندنا فى إيران كل العناصر التى تجعلنا دولة من الدرجة الأولى . . عندنا البترول والأرض والمعادن . . وعندنا عمليات جديدة لتحويل الحديد إلى صلب عن طريق الغاز الطبيعى . . وعندنا كوادر مدربة على أحدث ما وصل إليه العلم الحديث . . وعندنا كل المؤهلات التى تجعل من إيران دولة من الدرجة الأولى . .

فلم يكن « التطوير السريع الخاطف » هو السبب فى كل ما حدث . . إنما كان السبب أيضا : إدخال قرارات اجتماعية واسعة شاملة . . ففى النقاط التسع عشرة لثورتى نجد العمال الزراعيين يعملون لحساب أنفسهم . ولقد أدخلنا المساهمة مع العمال فى الأرباح . . وهم يملكون ٤٩٪ من المصانع . .

ولدينا من الأفكار والنظريات ما يصلح لبلادنا . . وليس من الممكن طبعا أن نختار الديمقراطية السويسرية أو السويدية . دون مراعاة للتقاليد المختلفة أو الظروف المغايرة . . وأنا أعتقد أن الناس المعقدين هم الذين ينقلون عن الغرب دون تفكير . .

قلت : جلالة الشاه لم تشأ أن تجيب عن سؤال سابق إن كان أحد قد ساعد الخمينى ؟ . .

أجاب : لا أعرف . ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن هناك « إرادة ما » شاءت أن أخرج من ايران . . أرادوا أن أخرج لأنى كنت مستقلا فى تفكيرى وتدبيرى ورسم مستقبل بلادى .

لعل كنت مستقلا اكثر مما يجب ؟ !

قلت : ولكن الذين ساندوا الخمينى أو ساعدوا على إخراج جلالتك ، لم يستفيدوا شيئا !

قال : هذا هو التاريخ دائما . .

فلو كان الناس يتعلمون من التاريخ ما وقعت هذه الأخطاء . . أوكانت هذه الحسابات الخاطئة . . فالتاريخ علمنا ألا نتعلم منه شيئاً !

قلت : هل حدث كل شىء فجأة ؟ . .

أجاب : لم يكن فجأة . . لقد استعدوا لذلك . قبل ستين على الأقل .

قلت : دون أن يدرى أحد فى إيران كلها بذلك ؟

أجاب : ليس بالضبط ! . .

قلت : هل المخابرات الإيرانية والوطنيون والرسميون وغيرهم لم يعرفوا شيئا عن الإعداد للانقلاب عليك ؟ . .

أجاب : ليس بالضبط : ليس بالضبط ! ولكنى أنا الذى قررت أن أخرج من أجل ديمقراطية البلاد . ومن أجل سلامتها . وما دام هذا هو الرأى العام فلابد أن أخرج أمام ضغوط كثيرة : إعطاء حريات كثيرة وتراجع مستمر أمام هذه الضغوط . . وإذا بدأ كل شىء يتحرك ضدى ، فلن يتوقف شىء بعد ذلك . .

قلت : فماذا كانت نتيجة كل هذه الديمقراطية المتعجلة ؟ . .

أجاب : كانت انتحارية . فقد كان من الأفضل والأسلم أن يحدث كل ذلك فى عشر سنوات مراعاة لظروفنا الجغرافية وتقاليدنا . .

إنها غلطة لعلها تنفع الآخرين فلا يقعوا فيها . . إننى الآن أرى كل شىء بوضوح . . أرى كل أخطائى . .

ومن بين أخطائى المميتة : أننى صدقت الغرب كالأعمى . . وأننى أخذت قضية صداقة الغرب شيئا مسلّما به . . لقد كنت أعمى . . وبعد أن استسلمت لهذه الصداقة ، ذهبت بسرعة إلى ما تمنيته لبلادى . . أعطيت بلادى أكثر وأكبر مما تقدر على هضمه . .

قلت : جلالة الشاه ، ما الذى جعلك هكذا عصبيا جدا فاتخذت هذا القرار وخرجت من بلادك دون أن ترتب البيت أوحتى دون أن تنظر وراءك . .

قال : عندى نظرية . . وهى أن الملكية الوراثية شىء صعب جدا . . فكل قرار أتخذه سوف يقع فيه ابنى بعد ذلك . . ولذلك قررت ألا أريق الدماء حتى لا يحاسب ابنى عليها ، ففى نظام الملكية الوراثية من الضرورى أن تفكر فى الذى سوف يجىء من بعدك . . وإذا كان الذى سيجىء هو ابنك . كان الموقف قاسيا صعبا . .

قلت : جلالة الشاه هل عندما خرجت من إيران كنت تشعر أن هذه هى نهاية الملكية ؟ . .

أجاب : آه . . لا أعرف . . كل الناس كانوا يقولون لى إن من الأفضل أن أقوم بإجازة . . شهرا أو شهرين ولكن السبب هو الجنرال الأمريكى هاوزر . . الذى جاء قبل خروجى . . ولم يشأ أن يتصل بى كما هى العادة . . وقد أعد كل شىء ليدفعنى إلى الخروج . . فلولا هذا الرجل بالذات ما كان قد حدث شىء .

قلت : فهل اخطأت أمريكا فى الحساب لأن الموقف بعد ذلك قد انقلب ضدها ؟

قال : دعنا ننتظر . . سوف نرى النتائج . . وسوف نرى ماذا أخذ الأمريكان وماذا تركوا ، وماذا سوف يأخذ الروس . . ثم ما الذى يتبقى للشعب الإيرانى باسم الإسلام الكاذب . . أو باسم الادعاء على الإسلام . .

■ ■ ■

وتركت فنجان الشاى الذى نبهنى جلالة الشاه إلى أننى قد شربته دون أن أضع فيه بعض السكر . . ولم أتعمد أن يكون لذلك أى معنى أو علاقة بهذا الحوار الحزين . . ونهضت . . وامتدت يد الشاه . . يد الرجل الذى سقط عنه التاجان : تاج الملك ، وتاج الصحة .

. وأمام الباب وجدت النتين من بناته قد ركبتا حصانا : طفولة وحيوية وبراءة ولا تدريان ماذا حدث . . فهما على كل حال تلعبان . . وتتلقيان القبلات من الأقارب يروحون ويجيئون . . فمن المقدر لهما أن تعيشا فى عالم غريب . . بعيدا عن إيران التى وضعت على رأس الشاه أكبر التيجان الباهرة ، ثم استعاضت عنه بأكبر العمائم السوداء . .

وعندما هبطت السلالم الطويلة العريضة كانت شمس يوم الأحد ١٥ مايو سنة ١٩٨٠ . . قد غربت ودفنت نفسها وراء سحب كثيفة . . وفهمت المعنى الذى قصدته الشمس ! □